فلسفة التصوف عند ابن سبعين

م.م. محمد حسن فيصل عزيز
شعبة التأهيل والتوظيف والمتابعة
جامعة النهرين

الكلمات المفتاحية: الفلسفة. التصوف. ابن سبعين

الملخص:

يعد ابن سبعين أحد مفكري الأندلس في القرن السابع الهجري، وعلى الرغم من أنَّ بعض الدعوات التي تطلق على أنَّ بعد ابن رشد لا توجد فلسفة، وأنَّ الفلسفة الإسلامية قد انتهت، يثبت لنا التاريخ الفلسفي أنَّ الفلسفة الإسلامية بقيت مستمرة إلى يومنا هذا، وعلى الرغم من أنَّ ابن سبعين قريب عهد عن ابن رشد، ولكنه كان ضمن سلسلة متصلة ومستمرة للفكر الفلسفي الإسلامي.

ويمزج ابن سبعين بين التصوف والفلسفة عنده من أجل إعطاء للفكر الفلسفي طابعه الإسلامي المتمثل في التصوف، فهو لم يحبذ المدارس المشائية في الإسلام، وعدَّ أنَّ أغلب فلاسفة الإسلام جاءوا بالأطروحات اليونانية نفسها، وهذا لا يعبر عن الهوية الإسلامية، فالفلسفة – عنده – يجب أنْ تكون ذات طابع إسلامي بحت، ومتميزة عن الفلسفات الأمم الأخرى.

وكان لابن سبعين رؤية مغايرة في التصوف الفلسفي، فضلًا عن كونه رفض الاتجاهات الفلسفية الموجودة آنذاك، وذلك لأنَّه رأى أنَّ هذه الاتجاهات الفلسفية نسخة من الفلسفة اليونانية، وأنَّ الفلسفة في العالم الإسلامي لا يجب أنَّ تكون نسخة من الفلسفة اليونانية.

المقدمة:

يعد ابن سبعين أحد مفكري الأندلس في القرن السابع الهجري، وعلى الرغم من أنَّ بعض الدعوات التي تطلق على أنَّ بعد ابن رشد لا توجد فلسفة، وأنَّ الفلسفة الإسلامية قد انتهت، يثبت لنا التاريخ الفلسفي أنَّ الفلسفة الإسلامية بقيت مستمرة إلى يومنا هذا، وعلى

الرغم من أنَّ ابن سبعين قريب عهد عن ابن رشد، ولكنه كان ضمن سلسلة متصلة ومستمرة للفكر الفلسفي الإسلامي.

وكان لابن سبعين رؤية مغايرة في التصوف الفلسفي، فضلًا عن كونه رفض الاتجاهات الفلسفية الموجودة آنذاك، وذلك لأنَّه رأى أنَّ هذه الاتجاهات الفلسفية نسخة من الفلسفة اليونانية، وأنَّ الفلسفة في العالم الإسلامي لا يجب أنَّ تكون نسخة من الفلسفة اليونانية.

قسم بحثنا هذا إلى ثلاثة مباحث، جاء المبحث الأول حول حياة ابن سبعين ومؤلفاته، والمبحث الثاني حول التصوف عنده، وفي المبحث الثالث عن نقد الفلسفة والفلاسفة عنده.

ابن سبعين حياته ومؤلفاته

هو محمد بن عبد الحق بن سبعين، وكان يلقب بـ ((الأشبيلي)). ولد في مرسية في الأندلس في سنة 614هـ/ 1217م، ومات في مكة منتحرًا بقطع شريان يده في سنة 669هـ/ 1270م عن رغبة منه في ((الاتحاد بالله)) مثلما قيل (جورج، 2006م، ص25).

وأمضى ابن سبعين طفولته ووصباه بعيداً عن اللهو واللعب واللذة الطبيعية، فضلًا عن عزفه عن الرياسة العرضية المعول عليها عند العالم، ولاسيما عند أسرته، مع كونه وجدها في آبائه، وسعى طالباً للعلم منذ صباه وأنفق أغلب وقته فيه على يد الأساتذة الأندلسيين، حتى توافر لديه التكوين اللغوي والديني والفلسفي (محمد، 1981م، ص14).

إنَّ الحادث الأهم في حياته كان في إعجابه بامرأة موسرة الحال وغنية، إذ تزوج منها وأنجب منها ابنًا توفى في حياته، وهذه المرأة قد انفقت عليه من مالها الكثير، فضلًا عن تشييدها منزلًا له وكذلك زاوية أقام فيهما، ومما يبدو أنَّ زواجه منها وحماية ابن خلاص والي مدينة سبتة له، ساعداه في التفرغ للعلم وقراءة كتب التصوف وتدريسها، وهذا الأمر قد ساعده في ازدياد عدد حضور مجالسه ولاسيما العامة منهم، فانتشرت طريقته الصوفية بينهم، والتي عرفت في حينها بـ ((الطريقة السبعينية)) (فارس، 2019م، ص54-55).

ان هذه الحماية لابن خلاص لم تستمر لابن سبعين، إذ ألف ابن سبعين بعض المؤلفات مثل ((جواب ملك صقلية – أو الكلام على المسائل الصقلية)) وهو كتاب تضمن أجوبة ابن سبعين على الأسئلة التي أرسلها إليه فريدريك الثاني ملك النورمانديين في صقلية، وبسببه حمل عليه الفقهاء، ذلك لأنَّ هذا الكتاب وغيره قد حملت انتقادات وأفكار أوغرت

صدورهم، فضغطوا على السلطة آنذاك على إخراجه من المدينة، وتم لهم ذلك (فارس، 2019م، ص55).

و«خلف ابن سبعين المغرب إلى مكة، مارًا بمصر، التي كان قد وصل إليها صيته المرسوم بالكفر والحَيْدة عن سواء السبيل، مع رسول أوفده فقهاء المغرب لينقل أنَّه ((ملحد قائل بوحدة الخالق والمخلوق))، فما أطال بمصر بقاءه. لكنه لزم مكة حتى وفاته» (محمد، 1981م، ص17).

وأما مؤلفاته، فهي:

1. الكلام على المسائل الصقلية.
2. الرسالة الفقيرية.
3. الرسالة القوسية.
4. عهد ابن سبعين لتلاميذه.
5. كتاب الإحاطة.
6. رسالة في أنوار النبي.
7. رسالة خطاب الله بلسان نوره.
8. ملاحظات على بدُّ العارف.
9. رسالة الألواح المباركة.
10. وصية ابن سبعين لأصحابه.
11. الرسالة الرضوانية.
12. رسالة في عرفة.

التصوف عند ابن سبعين

إنَّ فلسفة ابن سبعين تعتمد بالأساس أو تقوم على مبدأ واحد، وما هو إلا التمييز بين ما هو ((وجود حقيقي)) وما هو ((وجود وهمي)). وأنَّ هذا الأمر ليس يسيرًا بالنسبة له، ذلك لكونه لا يتحقق إلا عن طريق نفي المشخَّص، بالاستناد إلى المطلق، الذي يعد أنَّ الحق واحد، وما عداه وهم (محمد، 1981م، ص112).

والذات الإنسانية عنده هي سبب القول ((بوجود مشخَّص))) وهو من أحوالها. فالحقيقة عنده تتمثل في أنَّ ((الوجود مطلق)). وفي مِكنة الذات هذه إدراك ما قامت به، من حيث أنَّها أوجدت من لم يكن موجودًا ((الأنا))، وأعدمت من لا يزال مائلًا ((الهو هو)) ويتمَّ لها ذلك عن طريق نزع الوهم (محمد، 1981م، ص112).

والله عنده هو: "الوجود حقيقة، ومقطوع عنه معدوم. وأخلاق الله صفاته، وصفاته لا تفارقه، والعمل الصالح لا يفارقه؛ لأنَّا نقول: العمل الصالح أخلاق الله وصفاته، وأخلاق الله وصفاته لا تفارقه، فالعمل الصالح لا يفارقه، فهو موجود أبدًا. وأيضًا العمل يطلب به تحصيل الخير النافع، والخير موجود ومطلوب يشار إليه" (ابن سبعين، د.ت، ص111). ونلاحظ أنَّ ابن سبعين ينزه الله، فيصفه بأنَّه: "لا موجود على الإطلاق ولا واحد على الحقيقة إلا الله، إلا الكل، إلا الهوى هو، إلا المنسوب إليه، إلا الجامع، إلا الأيس، إلا الأصل، إلا الواحد، إلا الأصح، أصح لا صح، ص ح ، حمْ، صمد، حق" (فارس، 2019م، ص72).

فضلًا عن هذا يرى ابن سبعين أنَّ "الحق تعالى ليس بينه وبين الموجودات مرتبة زمانية ولا مكانية، وأنَّه مع غيره بالإيجاد والتجديد، ووجوده مقوُّم لوجود العبد على ما هو عليه، فهو أقرب إلى العبد من العبد ذاته، والبعد إنَّما هو الحجاب الموجود في قلب العبد، وحجاب القلب هو مجموع صور الشهوات العاجلة وسكونها فيه. فرفض الشهوات زوال الحجاب، وزوال الحجاب يكشف حقيقة وجود الحق في ماهية العبد، ووجود الله عنده هو الكمال والسعادة والرفعة" (ابن سبعين، د.ت، ص119 – 120). ونلاحظ من هذا النص أنَّ ابن سبعين يستبعد وجود مرتبة زمانية أو مكانية بين الله ومخلوقاته، وإنَّما الموجود هو حجاب يفصل بين الله ومخلوقاته، وهذا الحجاب متكون من الشهوات، وعند زوالها سيزول هذا الحجاب، وينكشف العبد على ربه.

يرجع ابن سبعين كل الموجودات المختلفة في ماهياتها لهوية واحد، وهي الوجود المطلق، وهو الله، أي لا وجود لكل إلا في كل، وأنَّ الكل اتحد في الجزء فارتبطا بالأصل وهو الوجود، ولكنهما افترقا وانفصلا بالفرع، وأنَّ الجهلاء قد غلب عليهم العارض مثل الكثرة والعدد والخاصة، ولكن العلماء غلب عليهم الأصل وهو متمثل في ((وحدة الوجود)) (فارس، 2019م، ص73). وفي هذا المقام، يقول ابن سبعين: "لا تخالط من الرجال إلا من قامت به الكمالات كلها وعرف أسبابها وتجوهر بمدلول الإمكانات الإلهية، وتصرف بما يجب واتصف بالحكمة التي تفيد الصورة المتممة والمقوَّمة، ودخل تحت أحكام النبي عليه السلام من كل الجهات، بمعنى ظهرت السنة المحمدية عليه علمًا وحالًا وذوقًا وفعلًا ووجودًا، ويكون وارثًا على الحقيقة وعرف العلوم الضرورية والأعمال الواجبة وعلوم الفلسفة كلها وحصل الحقيقة الجامعة لكل شيء، وعلم التحقيق الذي لا ينال بالكسب والاجتهاد، ولا يشذ عنه شيء ولا يقعد منه ما هو موجود في غيره" (ابن سبعين، د.ت، ص120-121).

ويذهب ابن سبعين إلى إمكانية مخاطبة الإنسان الله، وتأتي هذه الإمكانية عن طريق الخطاب بلسان نور الله، أي مثلًا: قول المعصوم الواحد في كماله الشرط في نيل سائر الكمالات .. فإنَّ النطق الذي ينبعث على التعبير الصِّيغ منوطة به، وهو لا يتقدمها ولا يتأخرها (محمد، 1981م، ص153).

نقد ابن سبعين للفلسفة والفلاسفة

سعى ابن سبعين إلى إبطال المنطق الصوري، وفي هذا الإبطال ركز على بحوث رئيسة، وهي: الحدود، والألفاظ الستة، والمقولات العشر ولواحقها، وتركيب المعاني في القضايا، والقياس. وأعدَّ أنْ هدمها كافٍ لهدم ((البرهان)) الذي تقوم عليه. فضلًا عن لجوئه إلى إيراد آراء الفلاسفة المختلفة في كل مسألة منها في الأول، ومن ثم ينتقل إلى الحكم على الغلط، قياسًا لها على ما أعدُّه حقيقة أولى في تحصيل المعرفة بالوجود الحق (محمد، 1981م، ص128).

ويرفض أيضًا جعل الحد سببًا في معرفة غيره وفي الوقت نفسه لا نعرفه في نفسه، إذ يقول: "لا يجوز أنْ نجعله [الحد] سببًا لمعرفة غيره ثم لا نعرفه في نفسه، وذلك أنَّ الحد هو العبارة عن المحدود بما يحصره ويحيط به إحاطة تمنع ما ليس منه أنْ يدخل فيه، وأنْ يخرج منه ما هو منه" (ابن سبعين، 1978م، ص31). إذ إنَّ "صور الحدود والبراهين في النفس أبدية ثابتة على حالها لا تتغير وإنْ تغير المحسوس. ولذلك لا ينبغي أنْ يجهلوا أنَّه إنْ رام أحد منهم أنْ يحد شيئًا من الأشياء الجزئية فيروم أنْ يصيره أبديًا، وذلك خلاف ما في الطبيعة فيروم المحال، ويتعرض للباطل ولما لا يعقل، وواجب أنْ تكون الحدود إنَّما تتألف من الألفاظ التي تدل على المعاني الكلية المشتركة وتلك المعاني هي التي يدل عليها بالاسم أو دلالة مجملة وبالحد ثانيًا" (ابن سبعين، 1978م، ص36).

ويرى ابن سبعين أنَّ للتصوف "تسعة أوجه، وعبدها حبل التحقيق، وبعد الحبل تبدأ بالعالم السفر، وبعد السفر تقرع باب التحقيق والنور المبين، والهرامسة خاصة عَلِموه، والكتب المنزلة أفادتهم وأما الفلاسفة بأجمعهم ورؤسائهم من المشائين ورئيس المشائين أرسطو وأتباعه من غير ملّة الإسلام: ثامسطيوس والإسكندر الأفرودسي وفرفريوس القبرسي وأرسطاليس الصقلي وأتباعه من ملّة الإسلام مثل الفارابي وابن سينا وابن باجه ... والقاضي ابن رشد في بعض أمره، والسهروردي مؤلف ((حكمة الإشراق)) ... والغزالي بوجه ما، وابن خطيب الري في بعض صنائعه، وجميع النبهاء فإنَّهم لم يصلوا إليه لقصورهم عنه، ولأنَّ علومهم وصنائعهم دون ذلك كله" (ابن سبعين، د.ت، ص6-7).

وينصح ابن سبعين إلى عدم الالتفات "إلى قول بعض الفلاسفة في قولهم: عالم العقل، وعالم النفس، وعالم الطبيعة، والعلَّة، والواجب بذاته، وجميع ذلك من مفروضات الأوهام وذلك أنَّهم يظهر لهم من الحقيقة جملة مدركات وهمية بالمدرك العظيم الذي يظهر لهم، وهو أجلُّ من غيره» (محمد، 1981م، ص113). ونلمس في هذا القول لابن سبعين إلى رفضه لبعض المفاهيم الفلسفية، ورفضه أيضًا إلى الأخذ بها؛ لأنَّها لا يمكن أنْ تصل هذه المفاهيم إلى معرفة الله عز وجل.

يرى ابن سبعين أنَّ الفلاسفة المسلمين مثل الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد وغيرهم من الفلاسفة المسلمين لم يقدموا لنا فلسفة إسلامية خالصة، وإنَّما ما قدموه لنا لم يكن سوى فلسفة يونانية أعيد صياغتها بقالب إسلامي جديد، وما سمّي بعصر ازدهار الفلسفة الإسلامية لم يكن كذلك، وهذه التقييم النقدي الذي أقامه ابن سبعين هو أول محاولة نقدية جادة للفلسفة الإسلامية، ويتمثل نقده فيما يلي (فارس، 2019م، ص5-7).:

1. أنَّ الفارابي كان يعاني من تناقض واضطراب، ذلك لكونه كان يقول بآراء مختلفة، كما حدث فيما يتعلق باعتقاده في بقاء النفوس.
2. وأنَّ ابن سينا فهو مموه، مُسَفْسِطْ، كثير الطنطنة، قليل الفائدة، وما له من التأليف لا يصلح لشيء. ويزعم أنَّه أدرك الفلسفة المشرقية، ولو أدركها لتضوع ريحها عليه.
3. وأنَّ ابن رشد قد افتتن بأرسطو، فضلًا عن تقليده إياه تقليدًا أعمى حتى أنَّه لو سمع أرسطو يقول إنَّ القائم قاعد في زمان واحد لقال هو أيضًا بذلك واعتقده. وكذلك أنَّه قصير الباع، قليل المعرفة، بليد التصور، غير مدرك، غير أنَّه إنسان جيد قليل الفضول، ومنصف وعالم بعجزه.
4. وأنَّ الغزالي ما هو إلا لسان دون بيان، وصوت دون كلام، وتخليط يجمع الأضداد، وحيرة تقطع الأكباد، مرَّة صوفي، وأخرى فيلسوف، وثالثة أشعري، ورابعة فقيه، وخامسة مُحَيَّر، وإدراكه في العلوم القديمة أضعف من خيط العنكبوت، وفي التصوف كذلك؛ لأنَّه دخل الطريق بالاضطرار، الذي دعاه لذلك من عدم الإدراك.

الخاتمة:

إنَّ ابن سبعين اتخذ الاتجاه الصوفي في بنائه المعرفي، فضلًا عن مزجه التصوف بالفكر الفلسفي، وأخرج نظرية اسماها الوحدة المطلقة، ومن خلال هذه الفلسفة حاول المزج بين الوجود الإلهي والوجود الإنساني. ونلاحظ أنَّ هذا المزج بين التصوف والفلسفة عنده من أجل إعطاء للفكر الفلسفي طابعه الإسلامي المتمثل في التصوف، فهو لم يحبذ المدارس المشائية في الإسلام، وعدَّ أنَّ أغلب فلاسفة الإسلام جاءوا بالأطروحات اليونانية نفسها، وهذا لا يعبر عن الهوية الإسلامية، فالفلسفة – عنده – يجب أنْ تكون ذات طابع إسلامي بحت، ومتميزة عن الفلسفات الأمم الأخرى.

المصادر والمراجع

1. ابن سبعين، بُدُّ العارف، تحقيق وتقديم: جورج كتوره، دار الأندلس ودار الكندي، بيروت، ط1، 1978م.
2. أبي محمد عبد الحق بن سبعين المرسي الأندلسي، رسائل ابن سبعين، حققه وقدم له: عبد الرحمن بدوي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر، القاهرة، ط1، د.ت.
3. جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، دار الطليعة، بيروت، ط3، 2006م.
4. فارس العلاوي، الفلسفة الإسلامية بعد ابن رشد: فلاسفة القرن السابع الهجري وفلسفتهم نموذجًا، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 2019م.
5. محمد ياسر شرف، الوحدة المطلقة عن ابن سبعين، دار الرشيد للنشر، بغداد، ط1، 1981م.

Philosophy of Sufism according to Ibn Sabeina

Assist Lec: Muhammad Hassan Faisal Aziz
Rehabilitation, Employment and Follow-up Division
Al-Nahrain University

mohammed.H@nahrainuniv.edu.iq

Keywords: philosophy. Sufism. Ibn seventy

Summary:

Ibn sabeina is considered one of the thinkers of Andalusia in the seventh century AH, and despite some calls that after Ibn Rushd there is no philosophy, and that Islamic philosophy has ended, philosophical history proves to us that Islamic philosophy has continued to this day, and despite... Ibn sabeina is a close relative of Ibn Rushd, but he was part of a continuous and continuous chain of Islamic philosophical thought.

Weemix up Ibn sabeina Between Sufism and philosophy for him in order to give philosophical thought its Islamic character represented by Sufism. He did not favor the Peripatetic schools in Islam, and considered that most Islamic philosophers came with the same Greek theses, and this does not express Islamic identity. Philosophy - for him - must have an Islamic character. Purely, and distinct from the philosophies of other nations.

Ibn sabeina had a different vision in philosophical Sufism, in addition to rejecting the philosophical trends that existed at that time, because he saw that these philosophical trends were a copy of Greek philosophy, and that philosophy in the Islamic world should not be a copy of Greek philosophy.